

شخصية ناضرة يهملها النقد العربي

نقد ابن أبي عتيق

للأستاذ خليل هنداوى

مازدت خوفاً في آثار الأقدمين إلا زدت إعجاباً بها وبهذا الجدل الذي ولدها ؛ وإنك لتقلب في كتبهم فيبهرك هذا اللون في المسادة وهذا الفنن ، وهب أنك خرجت منزجاً لاضطراب في الاتساق واختلاف في الاتفاق ، فان هذا لم يكن ليذهب بيبض عجبك من هذا الجدل وهذا الدأب اللذين يدلانك على عقلية حاوات أن تتأمل وتمثل !

في كتب الأقدمين ذلك الاضطراب الذي كان لا يحسه أصحابه . لأنهم لم يملوا أعمالهم على حساب الأجيال الآتية ، ولو فعلوا لموتوا على مؤرخينا كثيراً من عناء الافتراض وقياس ما لا يقاس ، ولكن أصحابنا - عفا الله عنهم - لم يريدوا أن يعطونا الثمرة فأنجحة بل أرادوا أن نعمل على انضاجها وصونها . وفي كتبهم ثمرات كثيرة تنادى الأيدي وهي دائية القطوف ؛ وأذكر أني ما جلست يوماً إلى كتاب من هذه الكتب إلا خرجت بمحدث ممتع أو فائدة جميلة تدفعني نفسي إلى التقاطها وأني لي أن أقسم أعضاء جسدي أقلاماً تطرأ

جلست في هذا الصيف إلى أغاني أبي الفرج التي كلما ضربتها الأدباء تفجرت منها عيون جديدة . ووقفت على اسم « ابن أبي عتيق » الذي عاش في الحجاز في العصر الأموي ورافق تطور المدرسة الفزلية أتأمل تكرر اسمه في كثير من المواضع مع كثير من الشعراء ، طوراً يبدو لي كناقذ وطوراً كسامر ، فحشرت مواقف في هذه المواضع على الترتيب ، فإذا بي أراي أمام شخصية عنيدة في النقد هي - إذا صح ظني - أول شخصية في الأدب العربي « اليقيني » عالجت الأدب وعملت على نقده غير مستلزمة إلا ذوقها ... ولكن أبا الفرج عفا الله عنه ترك هذه الشخصية مجهولة لأنها - في زعمه - لم تتبكر ولم تنتج شيئاً ولا لحناً ، ولكن هذه الشخصية تردت كثيراً على الأفواه . وتفتش كثيراً بجامع اللهم والأدب ، وتصبغ كثيراً

هذه الجوامع بألوانها الخاصة . وبما يجعل هذه الشخصية بارزة ترددها الكثير إلى هذه الجوامع المختلفة ، وتردد أصحابها اليها معتبرين رأيها في النقد والأدب . ولا أعلم - بحسب روايات الأغاني - نقداً تحليلياً عميقاً كهذا النقد . ولقد أردت أن أوضح هذه الشخصية وأستوضح عنها في بطون الكتب والأخبار ، وليس عندي ما يسمفني على ذلك ؛ ولو كان ذلك سهلاً لما سهل على عقلي الذي لم أتعود إرغامه على الدخول في هذه المنزجات الطويلة التي تحتاج إلى تأمل طويل وأناة في الامعان . ولكن ذلك غير ماني من أن أغامر في رسم ناحية من نواحي شخصية هذا الرجل المجيب المنتج في النقد ، وأظنها الناحية الأكثر بروزاً في الرجل

والآن من هو ابن عتيق ؟

يبدو لنا ابن أبي عتيق رجلاً يخالط المغنين والشعراء ولا بد أنه كان يتذوقهم ، وأنه كان صاحب ثقافة واسعة في الشعر والفناء تخول له الحكم فيهما ، وإنه كان بمد هذا كله صاحب ذوق خاص يفهم الشعر والفناء به . ومذ كان كما يبدو يقصده اللحنون والشعراء أنفسهم يتحدثون اليه في لحن أوييت أو ما نحن أو شاعر فلا يتباطأ في حكمه ، ولا يفيل له رأي في ذلك . حديد اللسان والجنان والبيان ؛ ولولا هذه الثقافة وهذه الشهرة لما كان له مقام في ذلك . ولقد كان عمر بن أبي ربيعة أحسن القريين اليه ، وكان له معه عشرة حسنة ومجالس طيبة ، وكان له مع شعراء الحب والغزل أمور كثيرة ، ولا بد أن حادثة من حوادث غرامه جعلته يحدب على المحبين ، ويمثل دور الرسول بينهم وبين أحببتهم ويمتاز تقده بأنه كان نقد روح ومعان لا نقد قشور ومبان ؛

ويعود سر ذلك إلى أن اللغة العربية كانت لا تزال بعيدة عن الفساد ، وأن لسان العرب كان لا يزال لساناً فصيحاً ، وكان نقده أقرب إلى أحاديث النوادي ، لأنه نقد بيت أو فكرة ، ولأنه نقد يلم بجانب واحد من المعنى ويهمل بقية الجوانب . ونقده ليس فيه صرامة ولا خشونة ولا صلف ، وإنما هو نقد تهيمن عليه رقة حجازية ومجون برىء يابى إلا أن يظهر . ومن وراء ذلك تهكم بعيد وبصيب الفصل ؛ ولهذا التهكم جعل الشعراء يتقربون اليه ويطمعون في اكتساب مرضاته . وهو يذهب تارة في نقده يكشف عن المعنى غطاء تقبلاً ، وطوراً

حاشنة . فانظر ما كان أبعد هذه الروح في كشف المستور ، وما أخف روحها في التعبير عنه

واقعد بثب في تهكمه من الأدب إلى السياسة ويضربهما ويصيبهما بحجر واحد ويكون تهكمه في هذا الموقف الدقيق بليغاً ما بعده أبلغ ! سمع عمر ينشده قوله

فانتها طبة عالة تحاخط الجد مراراً باللب
إن كفى لك رهناً بالرضا فاقبلي يا هند ! قالت : قد وجب

فقال له عتيق : إن الناس يطلبون خليفة مذقت عثمان في صفة قوادتك هذه بدير أمورهم فما يجدونه . فاذا يستطيع الحال

أن يزيد على هذا التهكم ؟ ويسمع عمر ينشده قوله

حبذا أنت يا بغوم وأسماء ، وعيص يكننا وخلاء
فقال له : ما أبقيت شيئاً يُتمنى يا أبا الخطاب إلا مرجلاً يُسخن
لكم فيه الماء للفسل . ولا أدري كيف يوفق بين محرم وطاعة
إلا التهكم وحده ؟

ويسمع عمر ينشده قوله :

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كل يومين حجةً واعتباراً

فأجابه عتيق : الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ما سأله إيتيم

لك فسفك ! وهكذا نجد أنه يتصدى لعمر لا لأنه يضمر لعمر

مقماً أو كرهاً ، ولقد كان لعمر في نفسه منزلة لم ينزلها غيره . من شعراء عصره . وهو الذي تنبأ بنصف بيت كان في خاطر عمر

قال عمر : لا تلهها وأنت زينتها لي

فأجاب عتيق : أنت مثل الشيطان للانسان

فقال عمر : هو والله !

فقال عتيق : إن شيطانك ورب القبر ربما ألم بي فيجد

عندي من عصيانه خلاف ما يجده عندك من طاعة ، فيصيب مني وأصيب منه

ولعمر كما ذكرت في نفسه منزلة خاصة إذ يرى فيه النسل

الأعلى للشعر ، إليه يسمو الشعراء ، وبشعره يقتدى الشعر .

ولقد كان يعرف شعراء عصره منزلة عمر عند ابن أبي عتيق .

فكان يأتيه من يحاول مناقضته أو مجادلته فيه ، وكان الشاعر

يأتي بأبيات يتحدى شعر عمر ، ولا أعلم شاعراً اتنى سالماً

من نقد ابن أبي عتيق ، ولا أعلم واحداً استطاع أن يجرح له

حكماً أو نقداً

فليل هنر لوى

(وير الزور) البقية في العدد القادم

يستجلى المعنى البعيد في البيت ويكشف عن قصده ، وتارة يفسد

على الشاعر ما ذهب إليه ولم يظن له ! ومثل هذا النقد أقرب إلى

الروح الأدبية في ذلك العصر وهو — بعد هذا —

بميد عن مثل ذلك الاختلاق الذي وضع على لسان الخنساء

يوم تقدمت حسان بن ثابت وأضمت بنقدها اللغوى مواضع

نفره ! لأن الروببات الأدبية الأولى في الأمم لا تنو إلى مثل هذه

الفروق اللغوية الدقيقة التي لا تنشأ إلا عند رجال انصرفوا إلى

اللغة وتدقيقها والتفريق بين فروقها ، ولو أن هذه الروببات

تلذت إلى هذه الفروق لتلت كثيراً من روح نشاطها وأخذت

كثيراً من نار إبداعها . ويمتاز ابن أبي عتيق بثقافته الغنائية ،

ومثل هذه الثقافة ترقق الذهن وتلطف الحواس وتجعل للبيت

المنظوم قدراً خاصاً . وقد كانت هذه الثقافة الغنائية عنده سايقة

طبيعية . ولقد مر ذات يوم بمعبود وهو يفتي — وكان طفلاً —

فقال : « إن عاش مصدكان معنى بلاده » وعاش حتى رأى صدق

نبوته . ويمتاز بهذه الروح الخفيفة التي لا يستغنى النقد ولا الناقد

عنها . وبدل على ذلك مواقف كثيرة

منها أن عمر بن أبي ربيعة شب بزيب بنت موسى

الجمحية بقصيدته :

يا خليلي من ملام دعاني وأما الغداة بالأظمان

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده ووصف

من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر . فبلغ ذلك ابن أبي

عتيق فلامه فيها وقال له : أنتنق الشعر في ابنة عمي ؟ فقال عمر

لا تلمني ، عتيق ! حسبي الذي بي إن بي يا عتيق ما قد كفاني

لا تلمني ، وأنت زينتها لي أنت مثل الشيطان للانسان

فقال أبو وداعة السلمي منكراً على عمر التشبب بها « لا أقر

لابن أبي ربيعة أن يذكر امرأة من بني هصيص في شعره » فأجاب

ابن أبي عتيق « لا تلموا أبا وداعة أن . . . من سمرقند على أهل

عدن » ومن خفة روحه أن سمع عمر ينشد قصيدته

ومن لسقيم يكتم الناس ما به لزيب نجوى صدره والوساوس

ولست بناس ليلة الدار مجلساً لزيب حتى يعلو الرأس رامس

خلاء بليت قراؤه وتكشفت دجته ، وغاب من هو حارس

وما نلت منها محرماً غير أننا كلاًنا من الثوب الموردي لابس

قال عتيق : أمنا يسخر ابن أبي ربيعة ، فأى محرم بقي ؟

فاعتذر عمر ، فقال له عتيق : يا عاهر ! هذا البيت يحتاج إلى